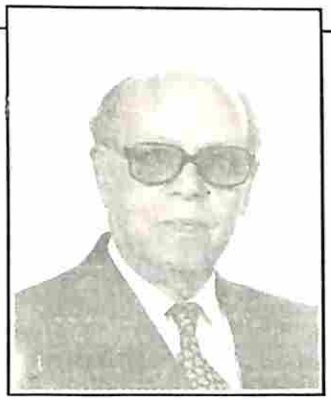

د. الشكعة

د. مصطفى الشكعة:

الاستشراق: سلبيّاته غالبة وقليل من المستشرقين فيهم خير لا يُجحد

حوار: أحمد فضل شبلول

حوارنا في هذا العدد من «مجلة الأدب الإسلامي» حول موضوع متخصص مع عالم وناقد متخصص. أما الموضوع فهو «الاستشراق» ومقابله «الاستغراب». أما الضيف فهو الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة. أما الموضوع.. فسوف نتعرف على بعض جوانبه من خلال الأسئلة والإجابات، وأما الدكتور مصطفى الشكعة فهو من مواليد عام ١٩١٩م بمحافظة الغربية بمصر، ويعمل حالياً أستاذاً للأدب والفكر الإسلامي بكلية الآداب بجامعة عين شمس، وقد سبق له أن تولى عمادة هذه الكلية كما شغل منصب عميد الدراسات العليا بجامعة الإمارات العربية المتحدة، ورأس قسم اللغة العربية بآداب عين شمس وآداب جامعة بيروت العربية، كما سبق له أن عُين أستاذاً للدراسات العليا بجامعة أم درمان، وأستاذاً لبعض المقررات الإسلامية في عدد من الجامعات الأمريكية، فضلاً عن تعيينه مستشاراً ثقافياً لمصر بالولايات المتحدة الأمريكية.

أما عن مؤلفات ضيفنا فهي تناهز الأربعين كتاباً في الآداب والفكر الإسلامي والتربية والاجتماع، بعضها بالإنجليزية والفرنسية. بالإضافة إلى أكثر من مائة بحث منشور، ألقى أكثرها في مؤتمرات عقدت في أمريكا وأوربا والعالمَيْن الإسلامي والعربي.

ولما كان موضوع الاستشراق والاستغراب من الموضوعات التي تشغل بال ضيفنا وتشغلنا -كقراء- أيضاً، فقد التقينا بالدكتور مصطفى الشكعة حول مائدة هذا الموضوع .. وكان الحوار التالي:

● د. مصطفى الشكعة .. هل يمكن أن يكون هناك «استغراب» في مقابل «الاستشراق»، فنقول عن فلان إنه «مستغرب» مثلما نطلق على علاّن إنه «مستشرق»؟ وإذا كان هناك ما يسمى بعلم الاستشراق، فهل يمكن في المقابل أن يوجد ما يسمى بعلم الاستغراب؟

- الاستشراق ظاهرة قديمة ذات أهداف محددة، بمعنى أن فرداً أو فريقاً من علماء الغرب يتوفّر على دراسة موضوع أو أكثر من علوم الإسلام واللغة العربية وآدابها وتراثها، ولا بأس أن يمتد النشاط ليشمل دراسة لغات الشعوب الإسلامية، مثل الفارسية والأردية والتركية، وما قد صدر عن أصحابها من دراسات إسلامية، كل ذلك بهدف التعرف على كل ماهو عربي أو إسلامي، بغية خدمة المنصّرين الذين يطلقون على أنفسهم المبشرين، وبغية تمهيد الطريق للاستعمار، والتعرف على نقاط الضعف في حياة المسلمين؛ لكي ينقض عليهم، ويستعمر بلادهم، ويستولي على خيراتهم، ويجنّد بعض ضعافهم لخدمة أغراضه المدمرة.

أما ما ورد في السؤال عن «الاستغراب» فإن ذلك لا يشكِّلُ قاعدة، أو ظاهرة تماثل «الاستشراق» أو تقابله، صحيح أن هناك بعض مواطني الدول العربية قد فتنوا بتراث الغرب وآدابه، بل هناك من اتخذ من اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أداة للكتابة ووسيلة للتعبير، ولكنهم أفراد قلائل، ولا يشكِّلون ظاهرة ثابتة مثل ظاهرة الاستشراق، ومن ثم فإنه برغم افتتان هذا البعض بتراث الغرب إلا أن «الاستغراب» لم يوجد بعد، ولا أعتقد أنه سيوجد أو سيستمر.

أما الاطلاع على ثقافة الغرب للانتفاع بما فيها من خير، وإضافة، فذلك أمر مطلوب بدون أن نذوب فيه أو ننخدع به.

● ترى ما أهم الفوائد التي جناها الأدب العربي على يد المستشرقين، وأي المستشرقين لعب الدور الأكبر في هذه الإفادة؟ وكيف تنظرون إلى دور مستشرق مثل «لويس ماسينيون»؟

- على الرغم من شرور الاستشراق، وحملة الجمهرة الساحقة من المستشرقين على ديننا، وكتابنا السماوي، وتشويه تاريخنا، وتزييف إنجازات أسلافنا، فإن لبعض المستشرقين مآثر واضحة مثل تحقيق بعض مخطوطات تراثنا، والتعريف بها، وترجمة بعضها، ومثل إنشاء بعض المعاجم، كمعجم ألفاظ القرآن الكريم، ومعجم ألفاظ الحديث.

وهناك مستشرقون ذوو صفحات بيضاء اتسموا بالموضوعية، والتزموا جانب الإنصاف، ونظروا إلى تراثنا نظرة تقدير ومودّة، أستطيع أن أذكر منهم توماس أرنولد، وآربري، وقد أضيف إليهما هاملتون جب(ينطق اسمه بالجيم المصرية)

أما لويس ماسينيون فإنه كان قسيساً، وقد تمثل منهج الدين المسيحي في تعامله مع العلوم الإسلامية، بمعنى أنه كان عفيفاً في لفظه، مقصداً في أحكامه، متى كان الأمر بعيداً عن العقيدة ، ولكنه أسرف في رؤاه حيال المتصوفة، ولقد قابلت الأستاذ ماسينيون أكثر من مرة في عقدي الخمسينيات والستينيات في مصر وباريس، وأعرف أنه مارس دوراً مشرفاً في عودة الملك العظيم محمد الخامس يرحمه الله، إلى عرشه في المغرب العربي الشقيق.

اتجاه قديم:

● هل هناك ما يسمى بالاستشراق السوفيتي، والاستشراق الإنجليزي،

حقيقة الأدب الإسلامي كامنة في قلوب جمهرة دارسي هذا الأدب

والاستشراق الأمريكي... إلخ، أم أن موضوع «الاستشراق» موضوع عام! أسأل هذا السؤال لأنه لفت نظري كتاب بعنوان «نجيب محظوظ في مرآة الاستشراق السوفيتي» لمؤلفه أحمد الخميس؟

- أعود لأكرر أن الاستشراق ظاهرة تختص بتوفّر أفراد أو جماعات على دراسة لغات المسلمين وعقيدتهم وآدابهم، وكل ما يتعلق بتراثهم وشؤونهم، ومن ثم فليس هناك ما يعرف بالاستشراق الإنجليزي أو الفرنسي أو الألماني أو الروسي، وإنما هناك مستشرقون إنجليز، وآخرون فرنسيون، ومستشرقون ألمان وآخرون روس... وهكذا. وكل هؤلاء المستشرقين يخضعون لقاعدة الاستشراق، وظاهرته التي أوضحناها في إجابة السؤال الأول.

أما الكتاب الذي صدر عن الروائي نجيب محفوظ في مرآة الاستشراق السوفيتي فإني لم اقرأه حتى أستطيع إبداء الرأي فيه، وان كنت لم أسلم طوال حياتي بأن هناك شيئاً اسمه الاتحاد السوفيتي، لأن هذا الاتحاد لم يحدث أبداً، وإنما كان هناك استعمار روسي فقط لبعض الأقطار، وكان بعضها إسلامياً مثل الجمهوريات الإسلامية الآسيوية، ولذلك وجب التصحيح بالقول إنه كان هناك قبل تفتت ما يسمى بالاتحاد السوفيتي دولة اسمها «روسيا ومستعمراتها».

● ترى منذ متى تفاقم موضوع الاستشراق والمستشرقين؟ .. هل نستطيع القول بأنه بدأ مع الحملة الفرنسية على الشرق في أواخر القرن الثامن عشر، أم قبلها بقليل أم بعدها؟

- إني لا أوافقك على صيغة الفقرة الأولى من السؤال التي تستفهم فيها عن الزمن الذي تفاقم فيه خطر الاستشراق والمستشرقين، وذلك لسبب منطقي بسيط هو أن دافع ظاهرة الاستشراق كان أمراً شريراً ألا وهو دراسة كل ما هو عربي أو إسلامي لمحاولة استكشاف مواضع للضعف في هذا التراث إن وجدت، فإذا لم يجدوها أوجدوها عن طريق الزيف والاختلاق، ومن ثم يمهدون الطريق للمنطلقَيْن الحاقدَيْن وهما الاستعمار والتنصير الذي أسموه التبشير.

وأما ربط الموعد أعني موعد ابتداء الاستشراق بالحملة الفرنسية على مصر قبلاً أو بعداً، فإن الاستفسار على هذا النحو غير وارد، لأن الاستشراق نشأ قبل ذلك بعدة قرون، إنه نشأ منذ الترجمات الأولى للقرآن الكريم في القرن الخامس عشر بشكل رسمي، ونشأ قبل ذلك بشكل غير رسمي في محاولات سرقة موسى ابن ميمون أفكار الفيلسوف المسلم أبي الوليد بن رشد بعد دراستها وهضمها وتطبيقها على أبناء جلدته من اليهود الخارجين على أصول الملة، ثم ما قام به توما الأكويني هو الآخر من الاستيلاء على أفكار ابن رشد في كتابه «فصل المقال» واستعمالها في حواره مع الثوار المسيحيين على مبادىء المسيحية.

كراهية لديننا:

● قلتم في الاجابة عن السؤال السابق إن دافع ظاهرة الاستشراق كان أمراً شريراً، فهل تعتقدون أن الاستشراق كله شر..؟

- لا شك أن الاستشراق سيءُ السمعة، شديد الكراهية للإسلام، واضح التميز ضد ما هو عربي أو إسلامي، ومن ثم فقد تشكّل الرأي العام ضده، وتذهب جمهرة المسلمين إلى الرأي الذي يقول إن الاستشراق كله شر.

غير أن الصفوة من الدارسين الذين يتابعون فكر المستشرقين وكتاباتهم يجدون في ثنايا ذلك بعض الجهود الجيدة، وربما المنصفة، فمجهودات بعضهم في تحقيق التراث الإسلامي والعربي يعد أمراً حميداً، وجهودهم في إعداد معاجم ألفاظ القرآن الكريم والسنّة الشريفة- رغم إنكارهم للعقيدة الإسلامية والرسالة المحمدية - شيء جيد، وإن اهتمامهم هذا الذي بذلوه يشكّل بيّنة إدانة ضدهم، فلولا أن في القرآن الكريم ظواهر معجزة ما التفتوا إليه، والمعيار نفسه ينطبق على السنة المحمدية الشريفة.

هذا ولا شك في أن بين المستشرقين قلة يحمل فكرها خيراً كثيراً، وذلك لما اتصفوا به من روح علمية، وإنصاف للإسلام عقيدة وفكراً وتراثاً، حتى إن بعضهم نادى بـ «أسلمة» أوربا، يعني ضرورة أن تعتنق أوربا الإسلام، وتطبق أحكامه على مجتمعها، ويأتي على رأس هؤلاء المستشرق الأسباني كوديرا الذي كان يطلق على نفسه المنطوق العربي لاسمه وهو «قديرة».

وإنني أعرف من المستشرقين الإنجليز المعاصرين مَنْ يعتقد جازماً بأن القرآن الكريم ليس من كلام محمد ﷺ، وتلك مرحلة تقربه إلى الإسلام برغم كونه من رجال الدين المسيحي، إنه المستشرق آلان جونز الأستاذ بجامعة اكسفورد، كذلك أعرف من المستشرقين الألمان المعاصرين الصديق الدكتور ولفرد فيشر رئيس قسم اللغة العربية بجامعة إرلنجن بألمانيا الذي قام بطرد أحد أساتذة القسم الذي يرأسه من الجامعة لأنه تطاول على القرآن الكريم في بحث كتبه، هذا فضلاً عن الأسماء التي ذكرتها آنفاً.

وكذلك فإنه يمكن اصدار الحكم على الاستشراق والمستشرقين بأن غالبيته شر، وفي قليل منه خيرٌ كثير.

● أخيراً .. ما الآمال التي تعلقونها على وجود رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وعلى مجلتها الفصلية «مجلة الأدب الإسلامي»؟

- لقد تأخرت رابطة الأدب الإسلامي كثيراً في الظهور، على الرغم من أن حقيقة الأدب الإسلامي كانت كامنة في قلوب جمهرة دارسي ومدرسي الأدب، وكان حتمياً أن يتحول هذا الكمون الداخلي إلى ظهور منتشر. وأحمد الله كثيراً على أن رابطة الأدب الإسلامي قد صارت حقيقة واقعة، في هذا الزمن الذي تجرأت فيه أقلام عربية -يحمل أكثر أصحابها أسماء إسلامية- على القدح فيما كل ما هو إسلامي، ثم رغبت في أن تصنع أعمالاً أدبية- قصة كانت أو شعراً أو مقالة - تحمل قيماً مضادة للإسلام، معرضة به وبرموزه الكبرى. هنا يصير وجود رابطة الأدب الإسلامي أمراً ضرورياً بل حتمياً. بل إنه لا يقتصر الأمر على ظهور الرابطة وحسب، وإنما ينبغي أن يكون ظهوراً مناضلاً مقتحماً، في شكل ندوات تعقد، ومطبوعات تصدر، ومباحث تنشر، ومجلات تفرض نفسها بنفيس محتواها على جماهير القارئين، وهو ما تقوم به الرابطة فعلاً في إطار من الإيمان الراسخ بقضية الأدب الإسلامي، وثوب ناصع النقاء من الحماسة الراشدة والتنادي الجهير.

ولا شك في أن «مجلة الأدب الإسلامي» التي ولدت شابة، تقوم بقسط كبير من حلم العبء والاضطلاع برسالة الرابطة، وأملي أن تتحول قريباً من مجلة فصلية إلى مجلة شهرية.

الطفل الصورة

فريد محمد معوض

صورةٌ على الجدار
فيها طفلٌ بوسنيّ
يبكي ليل نهار

هذا الطفل البوسنيُّ كان لديه لَوْحٌ وكتاب، وأوراق وألعاب وغطاء أبيض وجلباب، وكان يلعب مع أحمد ومحمود وعليّ لعبة الاستخفاء، يدورون حول الجامع يجرون وسط الشارع، يرقبون نجماً لامعاً في صدر السماء يسألونه كيف ترى العالم، صغيراً أم كبيراً تراه.

وكان أبوه يؤذّن في الجامع حين تحين الصلاة، كان يقول: «الله أكبر» فتشرق الشمس على سراييفو، وتغرد الطيور السابحة في فضاء الله، كان يقول، بعد أن يشهد لله وللرسول: حيّ على الصلاة.. فتسجد جباه وتعلو جباه، وتطير العصافير صوب سحابة داكنة في الأفق فتحولها إلى صفاء في صفاء..

هذا الرجل المؤذن سمع نداء الجهاد ينذر بقدوم الأوغاد فراح يردد: حيّ على الجهاد.. فأصبح يؤذن للصلاة ويؤذن للجهاد.

يتقدم إخوته، يدوسون فوق النار، يرددون: لا إلٰه إلا الله .

أطلق الأوغاد النار فوقع المؤذن فجأة مبتسماً فأشرقت الشمس على سراييفو، بل على الدنيا كلها.

الطفل البوسنيّ ردد النداء – نداء الصلاة ونداء الجهاد بدلاً من أبيه، شظية طارت من مكان مجهول أوجعت وجه الطفل البوسنيّ، شعر بالألم فبكى، كان الجرحُ في قلبه أشد إيلاماً من الجرح الذي في وجهه، لم يغتم، ولم يهتم، راح يردد: لا إلٰه إلا الله – مثلما كان أبوه يردد في وجه العُتاة، ثم غاب عن الوعي لحظة، وأفاق تحوطه الجرحى، وسمع مصاباً يردد: مرحى لنا بالشهادة مرحى.

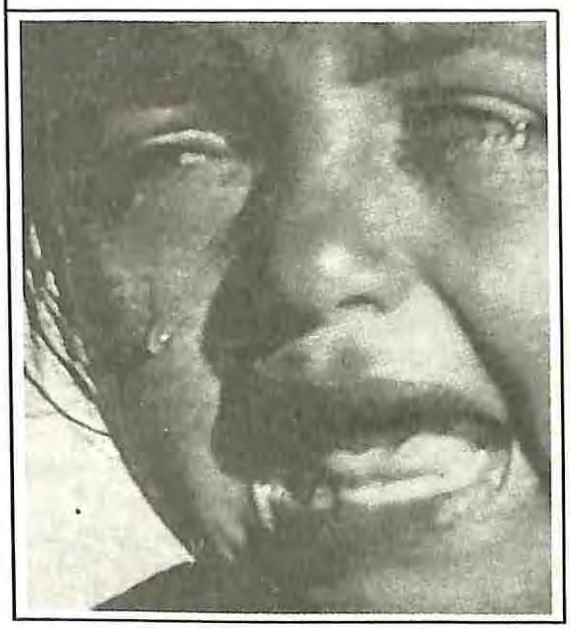

فرّت من عينيه دمعة حزينة، التقطها مصور بارع، في يوم حزين، حين كانت الشمس تلملم خيوطها للرحيل، وأتوا بصورته، وزعوها مع شروق الشمس على الدنيا، وصار الطفل البوسنيّ صورةً تملأ الحوائط، وكان من حظي صورة علقتها على الجدار، يا حزني كلما رأيتها .

صـــورة علـى الجـدار
فيهـــا طفـــل بوسنـــيّ
يبكـــي ليـــل نهـــار،